الباب الرابع

منهج النبي ﷺ في التغيير والإصلاح

obeikandl.com

ebeikandl.com

منهج النبي ﷺ في التغيير والإصلاح:

تموج الساحة الفكرية والسياسية بالحديث عن التغيير والإصلاح من جانب تيارات شتى واتجاهات فكرية متعددة، الكل يزعم أن منهجه في التغيير هو الأصوب، وأن طريقته في الإصلاح هي الأقوم، وهنا لابد للمسلم الحق من وقفة صادقة يرنو فيها ببصره، ويتطلع بقلبه وفؤاده إلى منبع الأسوة الحسنة وموطن القدوة الطيبة، سيد الخلق وحبيب الحق محمد ﷺ ليتأسى بمنهجه في التغيير ويقتدي بطريقته في الإصلاح، فإن الزمان قد استدار كهيئته يوم ولد وبعث المصطفى ﷺ، وإن الأوضاع الفاسدة والأعراف الباطلة التي واجهها لا تختلف كثيرًا عن الأعراف والقيم التي تعيشها البشرية الآن في الفترة الراهنة.

أولا: التغيير والإصلاح في الجانب السياسي:

واجه النبي ﷺ أوضاعًا سياسيًا فاسدة على المستوى المحلي والإقليمي والدولي، فعلى المستوى المحلي كانت السلطة في مكة مرتكزة في أيدي قليلة وطغمة فاسدة تفرض أوضاعًا وتضع أنظمة لا تمت للعدالة بصلة ولا فيها مكان للحرية والشورى والمساواة، بل الظلم هو الأصل والطبقية هي القانون ومراعاة مصالح الطغمة الحاكمة هي العرف السائد وعلى المستوى الإقليمي كان العرب قبائل متنافرة متناحرة تقوم بينهم الحروب الطاحنة الطويلة لأتفه الأسباب، وهل ننسى الحرب التي دارت رحاها بين قبيلتين مدة أربعين عامًا بسبب ناقة وهي حرب بعاث.

وعلى المستوى الدولي: كان العالم مقسمًا بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، وكانت أراضي العرب خاضعة لنفوذ إحدى هاتين القوتين العظيمتين، فالأطراف الشمالية لشبه الجزيرة العربية، كانت موزعة بين دولة الحيرة في العراق وهي خاضعة للنفوذ الفارسي، ودولة الغساسنة في الشام كانت خاضعة للنفوذ الروماني، كما أن الطرف الجنوبي في اليمن، كان خاضعًا للنفوذ الفارسي، فكيف أصلح النبي ﷺ هذا الوضع الفاسد؟ وكيف غيّر هذا الوضع الفاسد؟

كان يمكن للنبي ﷺ أن يرفع راية القومية العربية، وأن يقدم نفسه للمجتمع العربي المتناحر المتقاتل في صورة المصلح القومي الذي جاء ليجمع شملهم، ويلم شعثهم، ليس لتحرير أطراف الجزيرة من النفوذ الفارسي والروماني فحسب، وإنما ليجعل العرب سادة الدنيا، وقادة النظام العالمي، وبعد أن ينضوي العرب تحت لواء القومية العربية الذي رفعه ويصبح زعيمهم المطاع وقائدهم المفدى يخبرهم بأنه نبي مرسل لهم من عند الله عز وجل، وقد يرى البعض أن هذا الاختيار كان أفضل من الطريق الذي سلكه النبي ﷺ بإعلان نبوته ورسالته منذ اللحظة الأولى الأمر الذي جرَّ عليه وعلى أصحابه الكرام كثيرًا من صنوف الأذى وألوان المحن.

ولكنه ﷺ لم يسلك هذا الطريق، وإنما أعلنها صريحة منذ البداية أن الإيمان الصحيح والعقيدة السلمية هما وحدهما طريق الإصلاح وسبيل التغيير، فقال لهم منذ اللحظة الأولى: **«يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، «إني رسول الله إليكم»**.

واستمر ﷺ يغرس الإيمان في القلوب ويزكو به النفوس ويطهر

به الأفئدة ويقيم به بعد ذلك دعائم الدولة الإسلامية الفاضلة في المدينة المنورة.

حتى كانت الثمرة اليانعة والنتيجة الرائعة حينما انتقل المصطفى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد فتحت مكة، وتوحد العرب، ودانت الجزيرة العربية بالإسلام، ورفرفت عليها راية الحرية والأخوة والعدالة والمساواة، ثم انطلق أصحابه الكرام من بعده ينشرون نور الله في الأرض فتحررت أطراف الجزيرة العربية، بل خضعت معظم ممتلكات الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية للإسلام وأصبح أكثر من ثلثي مساحة الكرة الأرضية، في أقل من تسعين عامًا ينعم بظلال الإسلام، وبهذا تحقق التغيير والإصلاح على الجانب السياسي في مستوياته المختلفة، المحلية والإقليمية والدولية، تغيير قائم على أساس متين من الإيمان الصحيح والعقيدة السلمية.

ثانيا: التغيير والإصلاح في الجانب الاقتصادي:

ولد المصطفى ﷺ والوضع الاقتصادي في غاية التردي والفساد، فالثورة والمال مكدس في جيوب فئة قليلة العدد وتملك كل شيء، في حين تقبع الأكثرية الكاسدة في قاع المجتمع من الفقر ولا تملك من أمر نفسها شيئًا.

والأعراف والقوانين السائدة لا تسمح للتغيير إلا بأن يزداد الفقير فقرًا، بينما تتيح للغني أن يضخم ثروته ويزيدها أضعافًا مضاعفة، فالربا والاحتكار والظلم وسيادة منطق القوة كانت جميعها من معالم النظام الاقتصادي السائد في مكة، وثروات العرب في أطراف جزيرتهم تصب في نهاية المطاف بمقتضى الذل والخضوع في

خزائن الفرس والروم.

وقد كان يمكن للنبي ﷺ أن يشعلها ثورة إصلاحية لاسترداد حقوق الأغلبية المعْدمة الكادحة من أيدي الأقلية المترفة المستبدة ولو فعل لانضوى تحت لوائه وتجمع تحت رايته آلاف المطحونين المظلومين الذين يملك بهم أن يصل إلى سُدّة الحكم، وساعتها يخبرهم بأنه رسول هدى ونبي منهج وشريعة، ولكنه لم يسلك هذه الطريق ولم يختر الله له هذا المنهج وإنما اختار له أن يعلن منذ البداية أنه رسول الله يحمل منهاجًا ربانيًا عظيمًا يقوم على التوحيد الخالص والإيمان العميق فخاطبهم منذ اللحظة الأولى بقوله: **«يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا..»**.

وبعد تربية مستمرة وعمل متواصل، استقر الإيمان في القلوب وتغلغل في النفوس ومَلَك على الصحب الكرام أقطار نفوسهم فاندفعوا طائعين مختارين راغبين في تحقيق العدالة الاجتماعية، وقدموا يد العون إلى كل المحتاجين من الصدقات والنفقات بلا منٍّ ولا أذى ولا لجرح مشاعر ولا كسر خواطر.

وأعظم مثال على ذلك ما فعله سيدنا عثمان بن عفان عندما جاءته قافلة تجارية من الشام، محملة بألف ناقة تحمل على ظهورها من النعم والخيرات الكثير، في وقت اشتداد الكرب، والمحنة، والمجاعة عام الرمادة في خلافة عمر، وجاء التجار يساومونه على هذه القافلة للربح والمكسب، ويقدمون العروض المغرية الكثيرة، ولكنه قابلهم بقوله: إن الله قد أعطاني الحسنة بعشر أمثالها، أشهدكم أن هذه القافلة كلها صدقة على المسلمين.

فالإصلاح الاقتصادي إذًا لم يتحقق بقرار ملزم أو قانون ظاهر، إنما تحقق بالإيمان العميق بالله تعالى: {مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾} [البقرة: ٢٤٥].

وهذا مما يدفع المؤمن دفعًا إلى تحقيق العدالة وإذابة الفوارق بين الطبقات {كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ} [الحشر: ٧]، وهذا يكون بإعطاء الفقير والمحتاج كفايته التامة التي تضمن له الحياة الكريمة مع الحفاظ على كرامته.

{ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾} [البقرة: ٢٦٢].

والناظر في الأوضاع الاقتصادية اليوم في مستوياتها المختلفة المحلية والإقليمية والدولية يدرك بسهولة أن المشهد لا يختلف كثيرًا عما كان عليه الحال في الجاهلية، ولا إصلاح لهذه الأوضاع الفاسدة الجائرة إلا بالمنهج التربوي الإيماني الفريد الذي جاء به المصطفى ﷺ ليعم الرخاء أرجاء العالم كله.

ومن فساد النظام الاقتصادي اليوم أن الثروة متركزة في أيدي نفر قليل من أصحاب النفوذ والسلطان، في حين تبقى الأغلبية الكاسحة في فقر مدقع، وتعيش بعض شعوب الدول الإسلامية في ترف ورفاهية في الوقت الذي لا يجد إخوانهم في الدين ما يسدون به رمقهم ويبقيهم على قيد الحياة.

ثالثًا: التغيير والإصلاح في الجانب الاجتماعي:

واجه المصطفى ﷺ أوضاعًا اجتماعية فاسدة من ظلم وأكل أموال

الناس بالباطل، وسيادة منطق الثورة، والبقاء للأقوى والتفاخر بالأنساب، فهذا عمرو بن كلثوم يتباهى بقبيلته ومفاخرهم فيقول:

ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ::: ويشرب غيرنا كدرًا وطينًا
إذا بلغ الفطام لنا رضيع ::: تخر له الجبابرة ساجدينا

وهذا زهير بن أبي سلمة يعبر عن القيم والأعراف الجاهلية السائدة في العرب قائلاً:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه ::: يُهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

وهذا سيدنا جعفر بن أبي طالب يصور لنا حالة العرب قبل الإسلام حين البعثة، قال: كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا.

الزنا كان أمرًا شائعًا ومقننًا ومعترفًا به في المجتمع، وحديث السيدة عائشة رضي الله عنها دليل دامغ على ذلك فهي تتحدث عن وجود البغايا اللاتي كن ينصبن على بيوتهن رايات حمراء، أي أن وجودهن في المجتمع كان أمرًا غير مستنكر، واحتقار المرأة وامتهان كرامتها، والتنقيص من قدرها كان العرف السائد لدى كثير من قبائل العرب، فكانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع.

الربا كان أمرًا شائعًا مقننًا معترفًا به في جزيرة العرب، وكان التعامل بالربا منتشرًا في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان مائة في المائة. الحروب، كانت تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد ورى لنا التاريخ سلسلة حروب في أيام العرب في الجاهلية، فمن تلك الأيام يوم البسوس، ويوم داحس والغبراء، ويوم بعاث، إلى غير ذلك من القيم الفاسدة والأعراف الباطلة التي كان يمكن للمصطفى ﷺ أن يستغلها في تأجيج ثورة اجتماعية أخلاقية كريمة تأبى هذه الفوضى، وترفض هذا الانحلال، ثم بعد أن يصل إلى هدفه ويحقق غرضه يعلن نبوته ورسالته، ويقضي على تلك الفوضى الخلقية، ولكن الله تعالى لم يختر لنبيه ﷺ هذا الطريق للتغيير والإصلاح في الجانب الاجتماعي، وإنما كان الطريق فيه كما في سابقيه طريق الإيمان العميق الذي يملك أقطار النفوس، ويتغلغل في أعماق القلوب، فينتج عنه حتمًا الالتزام الخلقي والانضباط السلوكي.

فلم يعد للظلم ومنطق القوة والبقاء الأقوى وجود في المجتمع الإسلامي الذي أنشأه ورباه المصطفي ﷺ وصنعه على عينه، وصار الناس جميعًا سواسية كأسنان المشط لا تفاضل ولا تمايز بينهم في أصل الخلقة أو لون البشرة أو اللغة، وميزان التفاضل بينهم هو الميزان الإلهي العظيم، قال تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}

[الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى والعمل الصالح»، ويغضب النبي ﷺ حينما يُعير أبو ذر الغفاري أخاه بلالاً الحبشي بسواد بشرته قائلاً: يا ابن السوداء، فيقول المصطفى ﷺ: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية».

ويقول الصديق رضي الله عنه في أول بيان له عندما تولي الخلافة: (القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له).

وماعز والغامدية، حينما ارتكبا جريمة الزنا، ولم يطلع عليهما أحد من الخلق أتيا إلى النبي ﷺ يطلبان منه أن يطهرهما من الزنا - وهذا كان بإيمان عميق - منهم بالإقرار والاعتراف رغم مراجعة النبي ﷺ لهما عدة مرات.

كما نالت المرأة حريتها وأعاد الإسلام لها اعتبارها وكيانها، ونجت من الوأد، والاحتقار، والمهانة، وأصبحت لها كل الحقوق الشرعية في الإسلام.

هكذا حدث التغيير وتحقق الإصلاح بالتربية الإيمانية التي أولاها النبي ﷺ فائق عنايته وبالغ اهتمامه، فأثمرت هذا الجيل الرباني الفريد الذي حول به وجه الحياة كلها وغير بهم مجرى التاريخ.

وأنه لن يتحقق التغيير والإصلاح الاجتماعي الآن إلا بالطريقة ذاتها، وبالمنهج نفسه، فالأدواء والأمراض الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية المعاصرة، بل والمجتمع العالمي كله، هي

تقريبًا العلل ذاتها التي واجهها الحبيب المصطفى ﷺ، فلابد من ترسم خطا الحبيب ﷺ في الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي إذا أردنا الحياة السعيدة وإصلاح المجتمع.

* * *

obeikandl.com